



فقاعات من دون دماء هكذا تمت الأحجار مع بعضها خشية أن يسمعها أحد أو ينصل لها بشر، ولكنها تعلم أن الله يعلم السر وأخفي، وما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن حتماً لا يفهون تسبيحهم.

عرفت الأحجار فعادت إلى رشدتها وتكلمت بيوج فلم يعد بالإمكان السكوت والفقاعات تدرج من حولها والطفل الصغير يسبح في إغماء بعد أن رجفت كامل أعضائه وخلاياه دون استثناء.

فقاعات تتمدد وصمت واسع كبير يتخلل هذه الجلبة العظيمة، صمت يحتاج الدنيا ويملؤها عيّاً وها هي الملائكة تهـلـل وهي تنزل مسرعة وتعرج قابضة، أصابها من الخوف ما أصابها، لا تدري لماذا فقد جاءها الخبر الغازى بسرعة البرق فتطايرت في الأرجاء وضاقت السماء عليها بما رحبـت ثم سارـعت كما أمرـها الله تعالى فـهي تـفعل ما تـؤمـر بـطـيب خـاطـر وـحنـان وـمحـبة الـقادـمين.

بصيص من حـيـاة يتـوضـأ، بـعـض خـلـيـة في ضـمـير الصـغـير الـبـرـيء تصـحـو روـيدـاً لـتـذـكـر إـلـمـاماً صـوت صـفـير دـوـى، ثـم انـفـجار وانـفـجار، صـحـا الطـفـل الصـغـير من نـوـمـه مـذـعـورـاً وـتـكـوـم على نـفـسـه ثـم ما لـبـثـ أـن اـنـطـلـق وـقـد فـقـد جـلـ وـعـيـه وـهـامـ بينـ الجـدـران ثـم صـمـت يـعـقـبـه سـكـون وـرـيـبـ المـنـونـ، سـحـابة خـرقـاء تـدـخـلـ منـ بـيـنـ الشـقـوقـ وـتـمـشـى فـوقـ سـطـحـ الأرضـ كـوـحـشـ سـارـينـيـ أـجـوـفـ...

هـذـا الـوـحـشـ الـجـائـمـ فـوقـ الـأـرـضـ يـغـطـيـ الـدـنـيـاـ، هـيـ زـمـلـاـ، لـإـنـهـ سـوـرـيـاـ، إـنـهـ الـوـطـنـ، فـأـيـنـ مـاـ يـكـونـ الـمـوـتـ وـاـحـدـ وـالـمـصـيـبةـ تـكـهـرـ ثـمـ تـجـيـءـ حـبـلـ بـالـمـصـائـبـ وـلـاـ تـذـهـبـ، أـبـدـاً لـاـ تـذـهـبـ.

وـقـتـها خـيـلـ لـنـائـمـينـ أـنـ غـابـتـ الـمـلـائـكـةـ عنـ الـمـشـهـدـ سـاعـاتـ وـهـيـ تـلـامـسـ الـغـيـمـاتـ تـنـتـظـرـ اـنـحلـ الـغـازـاتـ وـالـفـقـاعـاتـ، أـرـوـاحـ تـصـعدـ تـتـلـقـفـهاـ الـمـلـائـكـةـ وـأـرـوـاحـ تـتـأـرـجـحـ تـحـاـولـ الـمـلـائـكـةـ إـلـمـساـكـ بـهـاـ، أـوـلـيـسـ لـلـمـلـائـكـةـ كـمـامـاتـ لـتـنـزـلـ مـسـرـعـةـ نحوـ الـفـقـاعـاتـ.

الـمـسـعـفـ جـالـسـ إـلـىـ جـانـبـ السـائـقـ وـالـسـيـارـةـ فـيـ حـنـقـ منـ اـمـتدـادـ الـطـرـيقـ، هـوـ يـذـكـرـ صـوتـ الصـفـيرـ الـأـرـعنـ منـ بـعـيدـ ثـمـ انـفـجـاراتـ مـتـبـاـيـنـةـ، بـعـدـها هـدـأـ الـكـونـ منـ حـولـهاـ لـحظـاتـ بلـ سـاعـاتـ وـدـهـورـ ثـمـ جـلـةـ وـكـلامـ، وـكـلامـ وـصـراـخـ، وـصـراـخـ وـهـدوـءـ مـمزـوجـ بـأـنـاثـ وـصـيـحـاتـ اـسـتـغـاثـةـ، وـفـقـاعـاتـ حـمـراءـ لـاـ دـمـ فـيـهاـ وـلـاـ هـوـاءـ، الـمـسـعـفـ فـيـ عـيـنـيـهـ الـواـجـمـتـينـ دـمـوعـ تـبـرـقـ، تـتـرـقـرـقـ، تـتـدـرـجـ مـاضـيـةـ إـلـىـ حـضـنـهـ حـيـثـ الطـفـلـ الـمـسـجـىـ فـيـ صـمـتـ وـسـكـونـ قـبـيلـ بـزوـغـ الـفـجرـ فـيـ أـجـوـاءـ الـغـوـطةـ، يـنـظـرـ لـلـأـفـقـ الدـامـيـ

وأخيلة شجيرات الزيتون على يمينه، تتأرجح بعض الذكريات..

لقد طغوا ويعدوا وتمددتْ جذورهم العفنة سياطاً من الخوف تلهب الظهور وقضباناً من الرعب تبعث بين أضلاع الناس، لم يبق في النقوس ذرة حب لما سموه (سورية الأسد)، تباً لهم وسوء مآب، لم يت遁ق الانتماء في أوعية الحياة لديهم، كريات حمراء سوداء لا حمراء.

عشش للحد والكربلاء الحقير، هؤلاء الذين يقتلون ويدمرون ثم هؤلاء الموالون.

يتنهد المسعد بعمق ثم يمسح أرنبة أنفه بطرف كتفه، ينظر للسائق أن أسرع، ينقل شعاع عينيه نحو الطفل الوديع الساكن في حضنه، وتعود ذكريات قريبة عجيبة، أعلام الثورة ترفرف يمنة وشمالاً، وهنافات تملأ الأجواء (مالنا غيرك يا الله... هي لله هي لله...) وغيرها بما عجّت به الأجواء الحميمية الدافئة والتلامح العجيب والتلوق إلى النور، كلها متوجة بأكاليل من الغار، فرحة ما بعدها فرحة والناس في نشوة كبرى، في خدر من نفحات حرة.

نعم أنا في شارع من شوارع سورية أهتف للحرية، أصدع للكرامة، أحلمُ هذا أم مازا؟!

إنجاز لا يضاهى وأي إنجاز أعظم منه عند السوريين، أكبر من الوصول إلى سطح القمر، نعم أكبر وأجل، ومن يعرف ما في هذه النقوس من التلوك والسوق للنور يعلم ذلك فهو أكبر بكثير نعم أكبر بكثير.

لقد بان خيط الفجر في ضواحي الفيحاء، وهذا هي جُلُقٌ تمشي إلى مصيرها تحت جنح ظلام على وشك أن يزول، "لا إله إلا الله، وما لنا غيرك يا الله" وهي تمشي إلى بوادر فجرها بعد ربع ساعة أو نيف، لا، ليس الفجر الذي يؤذن له فقط بل إنه النور الكبير.

لا تدري أين يكمن شعاع الأمل رابضاً، في حجم الفقاعات أم في حقد هؤلاء المستجدين للدعة تحت نير الاستبعاد والاستبداد، لا تقل لي أيها المشؤوم إنه الأمان، فلا أمان دون أمن في النقوس وزوال حقد من التائبين الظالمين.

انسللت الروح من الجسد من بين الفقاعات دون ضجة والطفل صامت دون روح تدبى الجسد، لم يحتمل هز السيارة نحو المشفى الميداني، رهيف وحساس أيها الطفل الوديع كما كل سوري حزّ أبي، لقد مات وهو يمحو عن جسده آثار خطايا البشر، عاد كما كان

ولكن هل بالإمكان أن يعود كما كان، لم يعد بالإمكان أن يكون كما كان، عند أذان الظهر تماماً اجتمع الطهر مع البراءة وتكلفت التلافيف وتمددتْ لتصبح صافية طرية غنية بالسديم الأملس من كل حدب وصوب.

تقاطر باقي المسعفين والبشر الباقين والأجساد المتلوية والجثث الهامة ملأى بالفقاعات والأطفال هائمون على وجوههم تمضي الدنيا بهم إلى حيث لا تدري ولا تعلم، حتى الأجساد التي ماتت واستشهدت تمضي إلى ما لا تدري في اللحظات الأولى، والممرات نحو الأخيرة تعج بالقادمين المسرعين فقد غصت الطرائق السبعة تحت جنح الظلام والفقاعات الداكنة، هناك الأرواح تغص بها الممرات وأجساد تغصُّ بها الحواري والبيوت، فهو الحشر أما مازا!!

والحشر على الله يسیر، أم أن هذه صعبة على البشر مهما كان الإيمان صادقاً، والقلب ينفطر لا محالة من فقاعات دون وهج واحمرار.

تعبر الأجواء أسراب من الخطايا والسكنون في صمت مطبق، وتعر دون استئذان عربات من الفقاعات ولا أحد يراها، وتهز ذرات الهواء هزاً سريرياً تكاد تنطفئ منه شعلة لم تنطفئ أبداً، وتركتض القبط وتموء من فعل البشر الساكن، وسكون ثم سكون، صمت يشقه صمت، لحظات كالسينين العجاف تتبعها ومضات صغيرة طفولية أضاءت السماء والأرض والبشر تائفون تائدون.

لقد استسلمت للقدر، فاضت الروح الصغيرة الكبيرة إلى بارئها ولحقت بالذين قضوا والملائكة تهلل وتسبيح وتردد "ولا تحسبنَ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواناً بل أحياءً عند ربِّهم يُرْزَقونَ، فرحبين، فرحبين".

الله أكبر، الله أكبر، وما النصر إلا من عند الله، والله هو الذي يقدر ما هو النصر فحكمة الله بالغة، وصرخ الطفل آخر صرخة وهو يحاول أن يعود ليس حبًّا في الدنيا فقد رأى ما رأى من العناية الربانية ولكن ليوقظ الذين ماتوا في الحياة دون موت وليرقول لهم لا لن أعود، لا لن أعود.

المصادر: